كأنه الحب !

قصة : **لوسي موود مونتجومري**

ترجمة : **تسنيم عبد الرحمن النمر**

في ظهيرة يوم شتوي في كندا ، وقد انعكست ظلال شجرة التنوب الطويلة على الثلج ، خرج ديفيد هارتلي لزيارة جارته جوزيفين إليوت. كان يوما قارس البرودة ، حتى أن نوافذ جميع الغرف التي لم يكن فيها مدفأة غدت مغطاة بالنخيل . أما المطبخ فكان المكان الوحيد الدافئ . ورغم شعور ديفيد بأنه أطال الزيارة ، فقد أغراه المطبخ لأول مرة وغدا البقاء فيه في هذا الجو البارد صفقة رابحة!

كانت جوزيفين تقوم بحياكة جورب رمادي طويل بهمة عالية ، وكان هذا علامة على أنه لم يعد لديها ما تقوله . فحينما تجد جوزفين ما تقوله ، تظل أصابعها البيضاء الممتلئة ـ والتي ترتدي في إحداها خاتم زواج أمها ـ تتحرك بين الإبر ببطء . وما إن تخف حدة الحوار ، حتى تنهمك في الحياكة بانفعال شديد وكأن زوجا واثنا عشر طفلا في انتظار انتهائها . كان ديفيد كثيرا ما يتساءل في قرارة نفسه عما تفعله جوزيفين بكل تلك الجوارب الرمادية عندما تنتهي من خياطتها . وانتهى إلى أنها ترسلها للمؤسسات الخيرية . على أي حال ، فإن الجوارب التي تحيكها كانت دافئة ومريحة . وتنهد ديفيد وهو يتذكر حال جواربه المثير للرثاء .

انتبهت جوزيفين حين تنهد ديفيد ، وخشيت أن يفاجئها بإحدى حماقاته ، فقررت أن تشغله . فطوت الجورب وغرزت الإبر في كرة كبيرة محشوة ، ونهضت لصنع بعض الشاي . ونهض ديفيد وقد استعد للرحيل . ولكن جوزيفين باغتته بقولها : "لن تذهب قبل أن تشرب الشاي ، سأعده على الفور" . أجاب ديفيد : "يجب علي العودة الآن" قالها بنبرة شخص أغراه العرض ، واستأنف كلامه : "زيلا ستكون بانتظاري الآن وقد أعدت الشاي ، كما أن عليَّ أن ألقي نظرة على المحصول" .

قالت جوزيفين بنبرة ساخرة لم تتعمدها قط : " لن تنتظر زيلا طويلا . يجب أن تبقى فأنا أحب الصحبة أثناء تناول الشاي" . وهكذا جلس ديفيد مرة أخرى . وبدا سعيد جدا وهو يرقب جوزيفين وقد جثت على ركبتيها خلف الموقد متظاهرة بإحضار بعض الحطب ، ولكنها في الحقيقة فعلت ذلك لتخفي ابتسامتها! وأسرت جوزيفين في نفسها : " أراهن على على أنه سعيد لحصوله على وجبة مغذية بعد حملات التجويع التي تشنها عليه أخته زيلا " .

ولكن جوزيفين أساءت الحكم تماما كما فعل هو . فقد دعته إلى شرب الشاي بدافع الشفقة ، واستجاب هو ظنا منه أنها دعته لشرب الشاي معها لشعورها بالوحدة ، فكانت هذه بالنسبة له علامة مشجعة . فهو لم يفكر مطلقا في موضوع الوجبة ، رغم أن العشاء الذي تعده زيلا ليس جيدا كفاية .

مال ديفيد على الكرسي وأخذ يرقب جوزيفين وهي تتحرك بسرعة ونشاط في أنحاء المطبخ . وكان مبتهجا أن سنحت له الفرصة بقضاء ساعة أخرى معها ،

وهما يتناولان الشاي في مقعدين متقابلين ، وقد صبَّت الشاي له وقدمت له البسكويت وكأنهما ... وكأنهما ... وهنا نظرت جوزيفين إليه نظرات صارمة ، وتلون وجه ديفيد ظناً منه أنها قرأت أفكاره فاحمر وجهه وقد اعتراه شعور بالذنب . ولكن جوزيفين لم تلحظ احمرار وجنتيه ، وإنما التفتت إليه لأنها كانت في حيرة بأن تختار بين مربى الفراولة أو الكرز . ولما استقر رأيها على الكرز استدارت مرة أخرى وكأنها لم تره بالمرة . ولكن ديفيد قرر كبح جماح نفسه .

استخدمت جوزيفين طقم الصيني الذي كان هدية لأمها يوم زفافها . فقد كان ذلك اليوم هو ذكرى زواج أمها . لكن ديفيد ظن أنها قررت استخدامه من باب الترحيب به . كان يعلم أنها تقدس هذا الطقم وتعتبره من أغلى مقتنياتها ، فأخذ يحك ذقنه وقد أصابته الخيلاء .

أخذت جوزيفين تتحرك بخفة بين غرفة الطعام والمطبخ . وفي كل مرة ، كانت تضيف صنفا جديدا لذيذا على الطاولة ! جوزيفين كما يشهد الجميع في "ميدو باي" كانت يوما ما سيدة فن الطبخ الراقي . وحاولت الكثيرات من ربات البيوت والمتزوجات حديثا منافستها ، غير أنهم أدركوا في النهاية بطلان مساعيهم . فقرروا الانسحاب بهدوء ورضوا بالمقعد الثاني نصيبا لهم .

شعرت جوزيفين بالفخر وهي تعد الطاولة وتضع إبريق الشاي . ثم دعت ديفيد للجلوس . أعدت جوزيفين شرائح وردية من اللحم البارد والمخلل والكشمش المتبل . وهي وصفة اخترعتها بنفسها ، وحازت بفضلها على الجائزة الأولى في المعرض المحلي لست سنوات متتالية . كما جهزت فطيرة بالليمون ، وبسكويت ،

ومكعبات رطبة من كعكة الفواكه بنكهة الخوخ ، بالإضافة لمربى الكرز ، وقليل من الجيلي أصفر اللون . وعلى رأسهم جميعا ، كوبين من الشاي الساخن بنكهة ورائحة لا يعادلهما شيء .

جلست جوزيفين على رأس الطاولة بشعرها المموج الأسود الناعم ، ووجنتيها المتوردتين كعادتهما منذ عشرين عاما . كانت حينها فتاة نحيلة ، وكان ديفيد الشاب الخجول يرقبها وهو يرتل الترنيمات عند اجتماعهم للصلاة . وعندما كان يسير في طريق العودة إلى منزله ، اعتاد أن يمشي على بعد عدة أقدام منها لأنه لم يكن جريئا كفاية ليسألها أن ترافقه .

ودار في خلد جوزيفين هذا السؤال : ماذا لو فقد ديفيد صوابه مرة أخرى وهم يحتسون الشاي ، وقرر أن يسألها نفس السؤال مرة أخرى؟ مضى ثمانية عشر عاما على سؤاله لها أول مرة؟ وسنتين منذ أن سألها آخر مرة . وراودته نفسه أن يجرب حظه مرة أخرى ، وخاصة أنها تبدو أرقّ من أي وقت مضى .

بعد أن فرغوا من تناول الطعام ، قامت جوزيفين بتنظيف الطاولة وغسل الأواني . ثم أخذت منشفة وجلست بقرب النافذة لتلمع الطقم الصيني . حينها شعر ديفيد بأن الفرصة مواتية ليسألها الزواج به . فتحرك وجلس بالقرب منها على الأريكة بجوار النافذة .

كانت الشمس قد آلت للغروب وقد انعكس ضوئها كقوس رائع على تلال الثلج وخليج سانت لورانس الأزرق . وأدرك ديفيد أن غروب الشمس سيكون هو المقدمة .

وقال :

" أليس الغروب جميلا يا جوزيفين ؟ "

قالها في إعجاب ثم أردف :

" إنها تذكرني بأبيات الشعر تلك التي كانت مقررة علينا في كتاب القراءة ونحن في الصف الخامس . أتذكَّر كيف كان المدرس يعلمنا إياها بعد ظهر أيام الجمعة " .

وأخذ ديفيد يردد الأبيات وكأنها أغنية ، ويصحبها ببعض الحركات البسيطة التي تعلمها أثناء دراسة فن الخطابة أيام المدرسة . كانت جوزيفين على علم بما سيقوم به ، ففي كل مرة يتقدم إليها كان يبدأ بإلقاء الشعر . وخطر في بالها : إذا كان ولابد أن يفعلها ، فكلما كان ذلك أسرع كان أفضل . وبخبرتها ، كانت تدري أنه ما إن يتوغل ديفيد في إلقاء الشعر فإنه وعلى الرغم من خجله لا سبيل لإيقافه .

"ولكن ستكون هذه هي المرة الأخيرة " هكذا قالت لنفسها في إصرار . "سأحسم الأمر هذه الليلة بحيث تكون هذه هي المرة الأخيرة" .

وحين انتهى ديفيد من إلقاءه الشعر ، وضع كفه على ذراعيها ، وقال :

"جوزيفين ، أتمنى لو تلبين طلبي وتقبلينني زوجا لك . أرجو أن تقبلي ... كم أتمنى ذلك يا جوزيفين ... كم أتمناه ! ألا تلبين طلبي وتقبليني زوجا لك؟! "

قامت جوزيفين بلف الفوطة بقوة ، ونظرت مباشرة في عينيه وقالت :

"ديفيد هارتلي ، ما الذي يجعلك تعرض علي الزواج بين الحين والآخر ، وقد أخبرتك عشرات المرات أنني لا يمكنني الزواج بك ولن أفعل ذلك؟ "

أجابها ديفيد بتوسل :

"لأنني لا أملك إلا التمسك بأمل أن تغيري رأيك بمرور الوقت!"

أجابت جوزيفين بحزم :

"حسنا ، اسمعني جيدا . أنا لن أتزوجك ... هذا أولا . أما ثانيا ، فإن هذه هي آخر مرة تطلبني فيها للزواج ... يجب أن تكون كذلك . لا تسألني هذا السؤال مرة أخرى وتحت أي ظرف . وإذا فعلت فإنني لن أجيبك ، ناهيك عن أنني لن أستمع إليك ، بل ولـن أتحدث معك مرة أخرى أبدا ... أبدا . (قالت جوزيفين العبـارة الأخيرة ببطءٍ وتأثر واضحين) . نحن أصدقـاء يـا ديفيد ، وأنا أستلطفك كثيرا ، وأسعد بزياراتك التي تقوم بها إلي من حين إلى آخر ، ونتبـادل فيها الأحاديث كأي جـارين . بيد أن هذا كله سينتهي إذا لـم تنفذ ما قلته لك" .

اعترض ديفيد متوسلا : "كم أنت قاسية ؟! لماذا تقطعين كل حبال الأمل بهذا الصورة الرهيبة؟! "

قال جوزيفين : " إنني أعني كل كلمة قلتها . أما الآن فيستحسن أن تغادر ، فأنا أفضل أن أبقى وحدي بعض الوقت بعد أي تجربة سيئة " .

استجاب ديفيد لطلبها بحزن ونهض ليرتدى معطفه وقبعته . وأشارت عليه جوزيفين بلطف أن ينتبه وهو يعبر الممر لئلا ينزلق على الثلج . ثم قامت بإضاءة

شمعة وأمسكتها عند باب المطبخ حتى يتيسر له الخروج . تخيل ديفيد وهو يمشي متثاقلا تجاه منزله امرأة بدينة ترتدي فستانا أرجوانيا مزخرفا ومريلة زرقـاء مموجـة . لم يكن هذا مشهدا رومانسيا . ولكن في تلك اللحظة ، كان هذا المشهد بالنسبة لديفيد أجمل من أي شيء في الدنيا بأسرها .

عندما رحل ، أغلقت جوزيفين الباب وقد أصابتها رعدة خفيفة . وأطفـأت الشمعة ، فلم يكن الجو مظلما كفاية ليبرر الإضاءة الصناعية لعقلية موفرة كعقليـتها. أخذت تتأمل المنزل الكبير الفارغ ، وأدركت كم بدا بيتها مهجورا وهي الساكنة الوحيدة . كان ساكنا باستثناء دقات ساعة جدها القديمة وأزيز الخشب في الموقد .

جلست جوزيفين بجانب النافذة وأخذت تحادث نفسها :

"أتمنى لو يمر علي أحد من عائلة سنتنر" قالتها بصوت مرتفع وأردفت :

"لو لم يتصرف ديفيد بسخافة ، لطلبت منه أن يقضي الأُمسِية معي . إن صحبته ممتعة فقط حين يريد ذلك ، فهو واسع الاطلاع وذكي . لابد أنه يشعر بالوحشة الآن وقد خلا البيت عليه اللهم إلا من أخته زيلا" .

نظرت جوزيفين عبر الفناء إلى البيت الصغير في الجهة الأخرى . هناك يقطن ذلك المؤجر الفرنسي الكندي الذي أجر لها شقتها . تأملت جوزيفين الدخان القرمزي المنبعث من مدخنته في شكل لولبي وهو يتصاعد ليمتزج مع صفحة السماء التي تلونت بلون الزعفران . وحادثتها نفسها أن تذهب لزيارة السيدة ليون

بيورير ورضيعها الأسمر ذوي العينين السويداوين . ولكن سرعان ما تراجعت عن الفكرة فهي والسيدة لا تكادان تجدان ما تتحدثان عنه .

ثم قالت لنفسها :

"لو لم يكن الجو باردا لصعدت إلى إدا . أظن أنه من الأفضل أن أشتغل بالحياكة قليلا ، فقد رأيت أصابع جيمي سنتنر أمس وقد برزت من جوربه" .

وعادت تعلق مرة أخرى :

" كم بدى ديفيد حزينا ، ولكني على يقين أني قد حسمت الأمر هذه المرة فيما يتعلق بفكرة الزواج تلك إلى الأبد ، وأنا سعيدة بذلك " .

قالت جوزيفين نفس الكلام للسيدة توم سنتنر ، التي جاءت لتساعدها في اختيار أوِزّها . كانوا في المطبخ وحولهم كمية كبيرة من الريش تكفي لملء حوض استحمام بأكمله . وعلى الطاولة صف كامل من الطيور الميتة ، بعد أن اصطادها ليون وأحضرها إليهم . ارتدت جوزيفين مريلة ووشاحا حول رأسها لتحفظ شعرها الذي كانت دائما تفتخر به .

"ما رأيك يا إدا؟ " قالتها بنبرة ضاحكة وهي تتذكر الموقف وأردفت : " كان ديفيد هنا بالأمس يتناول الشاي معي وطلبني للزواج مرة أخرى . كم هو مثابر هذا الرجل . لا أذكر أنني حظيت بعاشق من قبل ، لكنني ولا شك حصلت على الكثير من عروض الزواج" . لم تضحك إدا . وظهرت ملامح وجهها الهزيل وقد تلاشى منه الجمال ، وبدت وكأنها لم تضحك في حياتها قط .

وقالت في ألم : "لماذا لا تريدين الزواج به؟ "

ردت عليها جوزيفين بسرعة : " ولماذا يجب عليَّ ذلك ؟ "

أجابت إدا بحسم :

" لأنه حان الوقت لتتزوجي".

وأردفت :

" أنا لا أؤمن بأن تعيش المرأة وحدها بلا شريك ، كما أنني لا أرى خيرا لك من زواجك بديفيد هارتلي " .

نظرت جوزيفين إلى شقيقتها نظرة إنسان حريص على فهم فكر إنسان آخر هو بالنسبة له لغز دائم . فرغبة إدا الملحة في أن تجعلها تتزوج كانت دائما ما تثير عجبها . فقد تزوجت إدا وهي صغيرة وكانت حياتها الزوجية التي تجاوزت خمسة عشر عامـا عبارة عن سلسلـة من الشقاء واعتلال الصحة . فزوجها توم رجل كسول عديم الحيلة ، أهمل عائلته وأدمن الشراب . يقول الناس أنه يضرب زوجته وهو تحت تأثير الشراب . ولكن جوزيفين لم تصدق ذلك ، لأن إدا لم تكن لتخفي عنها شيئا كهذا . فلم يكن من عادتها أن تعاني في صمت .

ولولا مساعدة جوزيفين لأسرة توم لكانوا ماتوا جميعا من الجوع . فقد آوتهم جميعا وأطعمتهم وكستهم ، وكانت كريمة معهم ولم تتوان أبدا عن مساعدتهم . وكل الجوارب الرمادية التي حيرت ديفيد لكثرتها ، كانت كلها من نصيب عائلة سنتنر .

أما بالنسبة لجوزيفين ، فكانت تمتلك مزرعة جميلة وبيتا مريحا وحسابا كبيرا في البنك ، فغدت بذلك سيدة مستقلة مرتاحة البال . ومع هذا ، فإن إدا ما تفتأ تندب حظ أختها في أنها لم تحصل على زوج يعتني بها حتى الآن . هزت جوزيفين كتفيها باستهجان ، وتجاهلت الأمر ، وردت بنبرة ساخرة على كلام أختها قائلة :

"وأعيش مع زيلا ؟!"

أجابتها إدا :

"تعرفين جيدا أنه لا يجب عليك ذلك . فعندما توفيت زوجة ديفيد ، طلب ديفيد من زيلا المجيء والاعتناء بالمنزل ، وما إن يتزوج فإنها سترحل على الفور . أتحداك أن تبقى في المنزل وأنت سيدته . كما أن منزل ديفيد أروع عشرات المرات من منزلك ، رغم أني لا أنكر أن منزلك مريح كذلـك . علاوة على أن مزرعته هي الأفضل في "ميدو باي" وملحقة بمزرعتك . تخيلي كم سيحقق لكما انضمام المزرعتين مزيَّة رائعة ! أنت على خير ما يرام الآن يا جوزيفين ، ولكن ماذا ستفعلين غدا حين تكبرين في السن وتكونين وحيدة دون أن يهتم بك أحد ؟ أقول لك بكل صراحة ، إن مجرد ورود الفكرة على خاطري يصيبني بالأرق" .

أجابت جوزيفين بجفاء :

"أعتقد أن عندك ما يكفي من الهموم التي تؤرقك في الليل عوضا عن همي أنا! ثم بالنسبة لتقدمي في العمر ، فهناك طرق أخرى للاعتنـاء بي . فحين يكبر جـاك ، يمكنه أن يأتي هنا ويعيش معي . ولكن تأكدي غاليتي إدا أنني لن أتزوج

ديفيد هارتلي . أتمنى لو استمعت إليه يـا عزيزتي وهو يردد أبيـات الشعر ليلة أمس . لـم يعد يهم أي الأبيـات يختـار ، أعتقد أنه يردد أول شئ يخطر على بالـه .

فـي أحـد المرات ردد أبياتـا تقول : "أصغي إلـى صوت يأتـي من القبور حزيـن" . ومن سنتين ألقى عليَّ قصيدة : "الزواج في الجنة" بصوت واهن . لم يكن من السهل أبدا أن أمنع نفسي من الضحك فـي هكذا مواقف . ولكنني نجحت في ذلك ، فلـم أكن لأجرح شعوره أبدا" . بكل صراحة ، ليس عنـدي نيـة الزواج من أي شخص ، وإن كـان ولابد ، فإنه لـن يكون بحال ديفيد العاطفي لطيف المعشر" .

ضربت إدا بيدها بقوة على الطاولة وقد قررت داخلها أنها لن تضيع وقتا أكثر من ذلك في مناقشة الأمر معها . وأسرت السيدة توم في نفسها " لطيف المعشر بحق! وهل ترى جوزيفين هذا عيبا؟!" . لو أنها عاشت مع زوجها هي توم سنتنر خمسة عشر عاما ، كانت لتقدر شخصا لطيفا كديفيد هارتلي .

استمرت موجة البرد التي بدأت يوم أن زار ديفيد جوزيفين ، أسبوعا كاملا واشتدت مع الوقت . انخفضت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر حين زارتها إدا في إحدى ليالي السبت لتناول بعض القشطة . ولم يعد الخليج أزرقا بل غدا أبيضا وقد غطاه الثلج . صارت الأصوات في الخارج لا تخلو من طقطقة وفرقعة . أما في الداخل ، فقد أوقدت جوزيفين النار في جميع أنحاء المنزل ، لكن ظل المطبخ هو الأدفأ .

قالت جوزيفين لإدا عندما رأتها تستعد للانصراف :

" غطي رأسك جيدا يا إدا ، فأنت مصابة بزكام شديد " .

أجابت إدا :

"هناك موجة من الزكام الآن قد شملت الجميع . ديفيد هارتلي زارنا اليوم وكان يسعل بشدة . أخبرته أنه لا يعتني بنفسه جيدا وأخبرني أن زيلا كذلك مصابة بالزكام . أعتقد أنها ستصير غريبة الأطوار إلى أن تشفى ، أليس كذلك ؟"

ظلت جوزيفين مستيقظة لوقت متأخر من الليل لتتأكد من أن النيران ستظل موقدة . ثم خلدت إلى النوم في الغرفة المطلــة على الردهة التــي يوجد فيها الموقد . وتراءى لها في المنام كما لو أن هناك أصواتا مرتفعة خلف الحائط ، ثم استيقظت فجأة من نومها . وأدركت أن أحدهم يطرق باب الشرفة بشدة . فقفزت من فراشها على الفور وارتدت حذائها الصوفي . ولم يروادها شك بأن أحد أبناء أختهــا مريض . فقد كان من عادة هذه الأسرة أن يمرض أفرادها فــي هذا الوقت من الليل . فأسرعت نحو الباب وفتحته وهي تتوقع رؤية توم سنتنر أو حتى إدا نفسها بعينيها الكبيرتين ونظراتها الهلعة .

ولكن على غير المتوقع كان ديفيد هارتلي هو الطارق . وأخذ يلهث وهو يحاول جاهدا التقاط أنفاسه . لم يكن ديفيد يرتدي معطفا ، وأخذ يسعل بقوة . وقبل أن تسمع منه أي كلمة ، جذبته جوزيفين من ذراعه إلى داخل المنزل وسألته :

"ما الأمر يا ديفيد بحق السماء ؟!"

أجاب ديفيد : " زيلا مريضة جدا ، جئت إليك لأنك الأقرب . هل بالإمكان أن تأتي يا جوزيفين؟ يجب أن أذهب إلى الطبيب ولا أستطيع تركها وحدها . إنها تتألم بشكل رهيب . أعرف أنكما لستما علـى وفـاق ، ولكن يمكنك المجيء ، أليس كذلك ؟"

أجابت جوزيفين بسرعة : " بالطبع سآتي ، فأنا لست عديمة القلب لأرفض مساعدة إنسان مريض حتى لو كان ألد أعدائي . سأجهز نفسي وآتي معك ، وأنت اذهب مباشرة إلى حيث الموقد لتدفأ نفسك . بربك ! كيف تخرج في هذا البرد القارس بدون معطف أو قفازات وأنت مصاب ببرد شديد هكذا ؟! "

قال ديفيد معتذرا :

"لم أفكر في ها الأمر مطلقا ، فقد كنت قلقا جدا . أوقدت النار في المدفأة وجئت على الفور . ضايقني كثيرا أن أرى زيلا وهي تتأوه بتلك الصورة بحيث يمكنك سماعها في كل أرجاء المنزل " .

علقت جوزيفين على كلامه بنبرة جافة :

" أنت كذلك بحاجة إلى من يعتني بك تماما كزيلا ! "

استعدت جوزيفين في دقائق ، وجهزت سلة من الأدوية التي أعدتها في المنزل وتمتمت " هكذا لن أحتاج للمس أي شيء هناك " . وأصرت على لف شالها حول رأس ديفيد ورقبته ، وأعطته زوجا من القفازات التي كانت قد صنعته لجاك سنتنر ليرتديه . ثم أغلقت الباب وانطلقوا يعبرون الحقل المغطى بالثلج . كان زلقا جدا

بحيث اضطرت جوزيفين أن تمسك بذراعيه حتى تتمكن من الوقوف على قدميها . شعر ديفيد بنشوة لمساعدتها وأنساه هذا أي شيء آخر . وفي دقائق قليلة كانوا قد مروا تحت أغصان شجر الحور المتلألئ في مزرعة ديفيد . ولأول مرة اجتازت جوزيفين عتبة منزل ديفيد هارتلي الجديد .

فقد اعتـادت جوزيفين في طفولتها علـى زيارة أسرة هارتلـي في منزلهم القديم . كان لديفيد ست أخوات اعتادت زيارتهم أغلب الأوقات ، وكلهن كان يحببنها فيما عدا زيلا . كانتا لا تنسجمان معا مطلقا . وبعد أن تزوجن جميعهن ورحلن عن المنزل ، لم تعد جوزيفين تزورهم . ولم يتسنَّى لها أن ترى منزلهم الجديد ولم تتحدث هي وزيلا لسنوات .

كانت زيلا مريضة كفاية لتظهر اللطف لجوزيفين . وتأهب ديفيد للخروج على الفور وإحضار الطبيب ، وتأكدت جوزيفين من أنه تغطى جيدا قبل خروجه . ثم جهزت الكمادات وجلست بجانب السرير في انتظار الطبيب .

عندما جاءت السيدة توم لزيارتها ، وجدت جوزيفين مشغولـة بتحضير الكمادات ، وقد مطت شفتيها بطريقة توحي بأنها تستعد لسلسلة من المهـام الشاقة . علقت جوزييفن مجيبة على أسئلة إدا :

" زيلا مصابة بالتهاب رئوي ، والطبيب والممرضة ماري بيل هنا . ماري ستعتني بزيلا ، لكن لابد من وجود امرأة أخرى في المنزل للاهتمام بالأمور الأخرى . لذا سأبقى هنا قليلا . أرى أن هذا من واجبي ، خاصة أنه لا يوجد أحد آخر يمكنه

القيام بذلك . يمكنك إرسال مايمي وجاك إلى منزلي ليقيما فيه بعض الوقت إلى أن أعود . سأمر عليهم كل يوم لأتفقد الأمور هناك " .

أمست زيلا على ما يرام في نهاية الأسبوع . وذهبت جوزيفين إلى منزلها ظهيرة يوم السبت لترى كيف تسير الأمور . ووجدت إدا هناك والتي سرعان ما أرسلت ولديها لمكتب البريد حتى يتسنى لها الحديث مع جوزيفين .

قالت جوزيفين بنبرة رسمية وهي تمدد أقدامها أمام المدفأة : " لقد كان أسبوعا رهيبا يا إدا " .

علقت إدا متعاطفة : " إن زيلا امرأة غريبة الأطوار ! "

أردفت جوزيفين نافية : " لا إنها ليست زيلا ، فماري تعتني بها . إنه المنزل ، فلم يحدث أنني عشت في حياتي في مكان تملأه الفوضى والغبار بهذه الصورة . كم أشفقت على ديفيد أكثر من أي وقت مضى " .

قالت إدا : " أعتقد أنه قد اعتاد على ذلك " .

استأنفت جوزيفين : " لا أستطيع استيعاب فكرة أن يعتاد أحد على مثل هذا الأمر . خصوصا أن ديفيد كان منظما في طفولته . عندما دخلت المطبخ تلك الليلة ونظرت إليه ، لم يروادني شك أن الحائط لم يتم غسله البتة ، والأمر نفسه ينطبق على الأرضية . زوايا المنزل كانت ممتلئة بكتل من الغبار ، لدرجة أنه كان بإمكانك جرفها ! قمت بمسحها ولكنها ظلت غير نظيفة . أما بالنسبة لحجرة الطعام فحدث ولا حرج ، والحال نفسه ينطبق على بقية المنزل . كان يمكنك كتابة

اسمك على كل شيء من كثرة الغبار . حتى أنني لم أستطع تنظيف كل شيء ، فأي نوع من الضوضاء لم يكن محتملا وزيلا مريضة . غير أنني تمكنت من الكنس ونفض الغبار وتنظيف حجرة الطعام . وتأكدت طبعا أن الطعام مطهو بشكل جيد .

آه لو تسنى لك رؤية وجه ديفيد ، بدا وكأنه لم يعتد على أن يكون المكان نظيفا هكذا والطعام حلوَ المذاق . قمت كذلك برتق جواربه ، فلم يكن يملك زوجا واحدا سليما . وفعلت كل ما في وسعي لجعل المنزل مريحا له . ليس معنى ذلك أنه كان هناك أشياء أخرى يلزم عملها . فلو أن زيلا سمعتني وأنا أحدث أي جلبة لأرسلت ماري لتسألني ما الأمر ! كنت حين أريد الصعود إلى العلية ، أقوم بخلع حذائي وأسير على أطراف أصابعي حتى لا تعرف زيـلا بالأمر . على أي حـال ، فإنها لن تتمكن من مغادرة الفراش قبل أسبوعين . وأنا لا أدري إن كنت سأحتمل البقاء هناك دون أن أن أفكر في تنظيف المنزل بأكمله من القبو حتى العلية رغما عنها " .

لم تعلق إدا كثيرا على كلام جوزيفين ، ولكنها أسرت لنفسها برضا :

" إنها تشفق على ديفيد . سمعت أن الشفقة شيء كالحب . لنر إلام تنتهي الأمور ؟ "

تمكنت جوزيفين من قضاء الأسبوعين في منزل ديفيد بسلام . وفي أحد الأيام قالت لديفيد :

" أرى أن ماري بل ستتمكن من تولي الأمور حين أغادر . وأظن أنني سأعود الليلة إلى منزلي " .

أظلمت الدنيا في وجه ديفيد وقال :

" حسنا ، ليس بوسعنا أن نطلب منك المكوث لوقت أطول . وأرى أنه كان كرما منك أن تبقي معنا كل هذه المدة . ولا أعرف ماذا كنا سنفعل بدونك " .

أجابت جوزيفين باقتضاب :

" لا شكر على واجب " .

أردف ديفيد :

" لكن لا تعودي مشيا على الأقدام ، فالثلج كثيف جدا . سأوصلك بسيارتي حين تريدين الذهاب " .

أجابت جوزيفين :

" لن أعود قبل المساء على أي حال " .

خرج ديفيد إلى عمله وقد اعتمل الحزن قلبه ، فقد عاش في رفاهية على مدى ثلاثة أسابيع . وكانت جوزيفين تلبي احتياجاته ، وتعد طعامه ، وكل شيء في البيت كان نظيفا ولامعا . والأهم من هذا كله كان وجود جوزيفين بابتسامتها المرحة ومعاملتها اللطيفة . بيد أن كل هذا سينتهي الآن .

جلست جوزيفين لوقت طويل على مائدة الإفطار بعد رحيل ديفيد ، وقطبت وهي تنظر إلى علبة السكر ، ثم هزت رأسها بقوة وهي ترقب إبريق الشاي . و قالت محدثة نفسها :

" يجب على أن أقوم بذلك . أنا أشفق عليه لدرجة أنني لا أملك فعل أي شيء آخر " .

ثم نهضت جوزيفين واتجهت إلى النافذة ، ونظرت إلى بيتها الذي يقع بين بستان التنوب والحقل والذي غطاه الثلج ، وقالت بأسف :

"إنه بيت دافئ ومريح . كما أنني اعتدت على كوني حرة ومستقلة . لكن لا بأس ، فأنا لن يهدأ لي بال وأنا أعلم أن ديفيد يعيش هنا في الفوضى والقذارة وهو الرجل المنظم المرتب بطبيعته . لقد صار من واجبي أن أبقى هنا وأجعل المكان مريحا له . أسوأ ما في الأمر أنه سيكون علي أنا أن أفاتحه في الموضوع . فديفيد لن يجرؤ على الخوض فيه بعد ما قلته له آخر مرة عرض علي الزواج فيها . أتمنى لو لم أكن حاسمة بهذا القدر. أما الآن فعلي أنا أن أتدبر الأمر . ولكنني قطعا لن أبدأ بإلقاء أبيات من الشعر ، هذا أمر مفروغ منه " .

عادت جوزيفين بظهرها إلى الوراء وقد انسدل شعرها الأسود على كتفيها وأخذت تضحك . ثم اتجهت إلى المدفأة وأشعلت الحطب ، وأردفت :

" سأعد بعض اللحم والكرنب للعشاء . وسأصنع لديفيد حلوى البودينج التي يحبها . من الجميل أن يكون هناك شخص آخر أفكر فيه وأخطط له . كم كنت أهدر طاقتي في تجهيز وإعداد الطعام لي وحدي فحسب " .

أخذت جوزيفيــن تغني طوال النهار ، بينما كان ديفيد مكتئبــا وحزينا طول الوقت . وعندما جاء لتناول العشاء كانت تعبيرات وجهه تعكس حزنه العميق وكأن بلَيَّة أصابته . أما جوزيفين فقد هرَعت إلى غرفة الطعام قبل أن تفلت منها ابتسامة ، ثم انطلقت وجلست على الطاولة .

لم يكن العشاء ناجحا من الناحية النفسية ، فجوزيفين كانت متوترة وديفيد كان مكتئبا . أما ماري بيل فقد التهمت طعاما في عجلة كعادتها ، ثم أخذت طعام زيلا وصعدت إليها . وأخير قال ديفيد على مضض:

"إذا كنت ترغبين بالعودة إلــى المنزل الآن يا جوزيفين ، فسأجهز سيارتــي وأوصلك" .

بدأت جوزيفين بطي مفرش الطاولة . ومرة أخرى تمنت لو لم تكن حاسمة هكذا حين عرض عليها الزواج آخر مرة . ثم قالت بتجهم متجاهلة الرد على سؤاله (وهي غالبا ما تكون متجهمة حين يكون الكلام جادا) :

" أود إخبارك بما وصلت إليه حالة زيلا الصحية . إنها تتحسن الآن ، ولكن جسمها يرتعش كثيرا ، وأعتقد أنها لن تكون بحال أفضل بقية الشتاء . وبالتالي لن تتمكن من القيام بأي عمل شاق . إذا كنت تريد رأيي ، فأعتقد أنه من الأفضل لها أن تزور البلدة متى شعرت بتحسن ، وهي موافقة على ذلك . أختها سليمينتن تريدها أن تأتي وتمكث هناك للراحة قليلا . وأرى أنه أنسب مكان لها الآن لتستريح بعض الوقت" .

قال ديفيد في فتور :

"لها أن تذهب بالطبع إذا شاءت . يمكنني أن أتدبر أمري لبعض الوقت" .

قالت جوزيفين بتجهم :

"لن تكون مضطرا لتتدبر أمورك بنفسك . سأنتقل أنا إلى هنا وأتدبر شؤون المنزل" .

نظر ديفيد إليها حائرا وقال بتردد :

"ألن يكون هذا مدعاة لانتشار الأقاويل بين الناس و ... ؟"

قاطعته جوزيفين :

"أي أقاويل سينشرها الناس إذا ... تزوجنا ؟!"

قفز ديفيد من مكانه وهتف :

"أتعنين ذلك حقا يا جوزيفين ؟"

أجابت بمنتهى الاقتضاب :

"بالطبع أعنيه . ولكن أرجو ألا تتحدث عن الموضوع الآن . هيا اذهب إلى عملك واتركني ، فأنا أرغب بأن أبقى وحدي قليلا" .

ولأول وآخر مرة لم يستجب إليها ديفيد . فبدل أن يخرج ويتركها ، اتجه إلى الجهة الأخرى من الطاولة واحتواها بين ذراعيه وقبلها ، وبعد تردد قبلته هي كذلك .